الشكل والمضمون
في "مقامة العيد" لابن مرابع الأزدي

د. لحسن الكيري
جامعة عبد المالك السعدي
مدرسة الملك فهد العليا للترجمة – طنجة
المغرب

ملخص:

حاولنا في هذه الدراسة أن نعالج جنسا أدبيا نثريا حكائيا عربيا قديما يكشف عن فرادة الأدب العربي وتميزه ألا وهو فن المقامة. وهو جنس/نص أدبي كما نعلم له مقوماته البنائية ووظائفه المتنوعة. وقد ارتأينا أن نكون مختصرين غير مقصرين في تناول هذه المقامة بالدراسة والتحليل. وعليه، قدمنا نظرة موجزة حول ماهية هذا الفن الأدبي وتاريخ ولادته في الثقافة العربية، والتمثيل له بأهم الأسماء التي برزت فيه ثم انتقلنا بعد ذلك إلى تحليل المقامة السالفة الذكر مركزين على شكلها أولا ومضمونها ثانيا.

الكلمات المفاتيح: جنس أدبي – مقامة – شكل ومضمون – مقومات بنائية – الأندلس.

إهداء

هذه الدراسة المتواضعة مهداة إلى روح المستعرب والعلامة الإسباني فرناندو دي لا غرانخا سانطا ماريا (1928 – 1999) نظرا لمجهوداته القيمة في مجال دراسة التراث العربي وتحقيقه من فن الطبخ إلى فن المقامة التي ظلت من اهتماماته الكبرى إلى أن لبى نداء ربه راضيا.

تقديم

في الواقع، هذا النص المقامي الذي سنشتغل عليه ينتمي إلى الأندلس وصاحبه هو ابن مرابع الأزدي، أما عنوانه فهو: "مقامة العيد". وهو مأخوذ من كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" لذي الوزارتين ودفين الباب المحروق لسان الدين بن الخطيب (الخطيب، 2010، صفحة 152 الجزء 3). كل ذلك نقدمه وفق الشاكلة الآتية:

1 – نظرة تاريخية موجزة عن فن المقامة

أ – ماهية المقامة

لقد تعددت تعريفات هذا الجنس الأدبي الأصيل في الثقافة العربية القديمة غير أنه يمكن أن نقول إن الأمر يتعلق بأحدوثة من الكلام تشبه قصة قصيرة بطلها وهمي والراوي وهمي أيضا. ويشترط في البطل الوهمي أن يكون موصوفا بالحيلة والخداع والتمويه. وتظهر القصة مآزق الحياة وكيفية التخلص منها. وتستخدم أيضا لإظهار البراعة اللغوية والأدبية (الفاخوري، 1986، صفحة 730).

ب – ميلاد فن المقامة

يبدو أن بديع الزمان الهمذاني (توفي سنة 398هـ) هو واضع هذا الفن في شكله الفني النهائي والخاص والفريد. وقد قيل إن هذا الفن قد نشأ انطلاقا من ذيوع وشيوع القصص وانتشار الأخبار وظهور أشكال التزويق والتنميق في علمي البيان والبديع (بروكلمان، 1977، صفحة 196) في الأدب العربي قديما.

ج – أهمية المقامة

يبدو أن المقامات تختزل لنا، ولو بصورة جزئية، الحياة السائدة في عصر ما من العصور. وتتميز المقامات بوظيفتها التعليمية وقيمتها البيانية اللغوية (علي، 2015).

د – أشهر كتاب المقامات

من أبرز من كتب في فن المقامة فأبدع وأمتع وأقنع نجد المذكور اسمه أعلاه بديع الزمان الهمذاني (ت 389هـ) وأبو القاسم الحريري (توفي سنة 516هـ) وذلك أيام الدولة العباسية في عصورها الأخيرة. أما في عصر ما يصطلح عليه بـ: "النهضة العربية" فنقف على أسماء من قبيل الشيخ ناصيف اليازجي (ت 1871م) كرأس من رؤوس هذا النوع الأدبي العربي القح الذي سيمحي لتخلفه القصة والرواية في الزمن الحديث كما نعلم. وقد عرفت المقامات انتشارا واسعا أيضا في الأندلس والمغرب وتونس وغيرها من البلاد العربية لكن بدرجات متفاوتة.

ج – تأطير مقامة العيد

بالنظر إلى المعطى البيوغرافي، يبدو أن هذه المقامة لابن مرابع الأزدي قد كتبت في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي (14 م)، ذلكم أن صاحب "الإحاطة في أخبار غرناطة" وابن مرابع قد عاشا في نفس العصر تقريبا: الأول توفي سنة (1374م) في حين توفي الثاني سنة (1372م). هذا من حيث الفضاء الزماني أما من حيث الفضاء المكاني فإن أحداث هذه المقامة تدور في بقعة جغرافية أندلسية، وبالضبط في جنوب الأندلس ألا وهي مدينة غرناطة (Granada).

ومجرد استنطاق الزمان والمكان هنا يؤدي بنا إلى استنتاج فكرة رئيسة عن السياق الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي كتبت فيه هذه المقامة. ونعني من بين أهم ما نعنيه تضعضع سدة الحكم بالأندلس والخطر المتزايد يوما بعد يوم على مملكة غرناطة كآخر معقل للمسلمين

هناك، والهزائم الكبرى التي حصدها المرينيون (Los Merínidas) في هذه البلاد على يد الجيوش المسيحية وخاصة جيوش الملكين ألفونسو الحادي عشر وصهره ألفونسو الرابع ملك البرتغال. وتمثل معركة "الواد المالح" سنة 1340م النموذج الحي والواضح والفاضح حول ما نحن قائلوه ها هنا.

د – مصدر مقامة العيد

لقد سبق وأشرنا إلى كون هذه المقامة مقتطفة من مصنف "الإحاطة في أخبار غرناطة" وهو أحد أهم الكتب التاريخية. ومؤلفه هو الأديب الأندلسي الأريب لسان الدين بن الخطيب. وينصب موضوع الكتاب حول الحديث عن تاريخ غرناطة آخر معقل إسلامي سقط في الأندلس في يد الإفرنج. وهو عبارة عن موسوعة تؤرخ لكل ما يتعلق بهذه المدينة من أخبار وأوصاف ومعالم تاريخية لعل في مقدمتها قصر الحمراء.

هذا وقد عني الكاتب بتغطية جميع الجوانب الجغرافية من مواقع وتضاريس، والجوانب الفكرية والاجتماعية (تاريخ من نزل بها منذ عهد العرب الأوائل – من مر بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمتغلبين – ترجمة لأكثر من 500 شخصية مهمة في تاريخ المدينة –...)؛ غير أن الملاحظ على ابن الخطيب في كتابه عدم التقيد بالترتيب التاريخي للعصور والحوادث والأشخاص، وإنما هو يلتزم بالترتيب الأبجدي للتراجم. وقد طبع الكتاب لأول مرة سنة 1901 في القاهرة، ثم أعيد طبعه سنة 1956.

2 – وقفة مع شكل مقامة العيد

بادئ ذي بدء، نقصد بالشكل (La forma) هنا ما يلي:

–التمظهر الخارجي السطحي لهذا النص الإبداعي.

–التشكل والتجلي الخارجي للمضمون.

–الطرائق والأساليب والإواليات والميكانزمات والتقنيات والأدوات والأسس التي يرتكز عليها مبدع ما لكي يوصل أو يبلغ معنى أو رسالة ما إلى مرسل إليه ما في سياق ما.

وعليه، سيكون همنا الأكبر وشغلنا الشاغل في هذا المستوى هو عملية الإنصات الحذر للنص وتقصي عباراته وتتبع وجرد إواليات لكي نقبض (هل نستطيع يا ترى؟) على أهم ممتلكاته التقنية (جادري، 2012) التي ينكشف بها المعنى. أي أننا سنجيب في هذا المقام عن سؤال مهم جدا هو: كيف يقال ما يقال؟ وليس: ما الذي يقال؟

تجدر الإشارة إلى أننا لا ندعي تقديم تحليل جاهز ناجز وجامع مانع، لأننا مهما ادعينا ذلك سننهزم حتما أمام جمالية وقوة النص الإبداعي وقدرة اللغة كذلك على الانفلات والتمرد والتأزيق والروغان والدوران.

أولا، من الناحية المورفولوجية (La morfología) يبدو أن هذه المقامة "العيدية"، قيد التحليل، لا تخرج عما ألفناه عند رواد هذا الفن القصصي، ذلكم أنها تجاري أغلب المقامات في الطول مثلا. وهكذا نجدها تتكون من 130 سطرا وفي كل سطر تقريبا 10 كلمات أي بمعدل 1300 كلمة في المجموع. أيضا يمكن أن نلاحظ ورودها نثرا، حصريا، عكس بعض المقامات الأخرى التي دأب أصحابها على إدراج أبيات شعرية فيها (أُنظر مثلا "المقامة العلمية" للهمذاني و"المقامة الصنعائية" للحريري نموذجا).

وتتمفصل هذه المقامة إلى 5 تمفصلات كبرى نوردها حسب وجهة نظرنا الشخصية كما يلي:

1 – شد الراوي لفضول المتلقي؛

2 – عتاب الزوجة لزوجها منذ دخوله المنزل وتحفيزه على الخروج للبحث عن أضحية للعيد اقتداء بالجار؛

3 – خروج الزوج للبحث، والذي بعد تعب ونصب يستطيع أن يظفر بتيس من جزار؛

4 – هروب التيس ومحاكمة الزوج وإرجاع التيس له بعد كفالة وحمله إلى الدار مباشرة؛

5 – فرح الأولاد واهتمام الجيران مقابل عتاب وعقاب وقلق الزوجة التي لم ترض بهذه الأضحية، لتنتهي المقامة نهاية مفتوحة نستشف من خلالها أن البطل سيتوجه بإيعاز من الزوجة إلى المولى أبي سعيد بن نصر الرئيس.

والمتأمل في هذه المقامة، كذلك، يرى أنها لا تخرج عن المألوف ولا تخرق أية قواعد خاصة فيما يتعلق بالقيمة البيانية البلاغية للمقامة، باستثناء، طبعا، بعض الخَصيصَات القليلة جدا والتي سنشير إليها عندما يحين الحين.

ولما كانت مقامة العيد تنتمي إلى كاتب ينتمي بدوره إلى عصر تدهور وانحطاط وانقسام وتضعضع وانهيار وتقهقر للأوضاع الثقافية إجمالا، فإن شكل هذه المقامة غلبت عليه الزخرفة والتنميق وضروب من التزويق والتوشية والتطريز والمؤسَقة، كما حدث بالفعل مع الحريري (ت 516هـ) بصفة خاصة. وسنمثل الآن لتلك الميكانيزمات التي يرتكز عليها كاتب هذه المقامة من أجل أداء معانيه. كل ذلك سيتم وفق الشاكلة التالية:

أ – الجناس: (La homonimia)

ويعني عند البلاغيين اتفاق الكلمتين في كل الحروف أو أكثرها مع اختلاف في المعنى. ونمثل له ها هنا بـ: أيادي / نادي، أسماع / استماع، الألبا / الأحبا...

ب – السجع: (La asonancia)

وهو أيضا ظاهرة بلاغية بديعية تنتج عن الفواصل الكلامية المقفاة غير الموزونة، وتتخذ هذه الفواصل مثلا الشكل التالي:

بنية أ + بنية ب // بنية أ + بنية ب.

وهو يحضر بكثرة في هذه المقامة، ونمثل له بما يلي على سبيل الاستئناس لا الحصر: العاكف البادي // الرائح الغادي.

ج – الطباق: (La antonimia)

وهو بدوره ظاهرة بديعية خالصة ويفيد التضاد. وقد يكون طباق سلب أو طباق إيجاب، ومثاله هنا: الرائح ≠ الغادي.

د – التشبيه: (La comparación)

وهو ظاهرة بيانية هذه المرة تقوم على علاقتي المشابهة والحضور. إنه يسود في هذه المقامة كثيرا. ومثاله: يرغو كالبعير، ويزأر كالأسد.

هـ – الكناية: (La perífrasis)

وهي في أبسط تعريف لها تعني معنى المعنى أي الإحالة على معنى ثانٍ وليس الأول بتركيب ما لغاية ما في مقام ما. ومنها على سبيل المثال ها هنا: "...عودت أكل خبزك في غير منديل، وإيقاد الفتيل دون قنديل، وسكنى الخان وعدم ارتفاع الدخان...". وهاته كنايات عن الفقر والعوز والفاقة والارتحال الدائم والوحدة والجوع وعدم الاستقرار.

و – التشخيص: (La prosopopeya)

وهي صورة بلاغية يتم فيها تنزيل الأفكار والمعاني منزلة الأشخاص. كما تنسب إلى الجماد والحيوان والنبات أوصاف بشرية. ومثال ذلك هنا دائما: صرخ التيس.

هذا وقد لجأ الكاتب أيضا إلى تقنيات أخرى منها:

أ – ضرب المثل: (Los proverbios)

لأن الأمثال موجزة وموصلة للمعنى والموعظة والعبر. ومثالها: ليس الجد من الهزل.

ب – المبالغة: (La hipérbole)

ونقصد بها الإفراط في وصف شيء ما لأمر ما ومثلها من المقامة:"... غير أني رأيت صورة دون البغل وفوق الحمار وهيكلا يخبرك عن صورة العمار...".

ج – التناص: (La intertextualidad)

ونقصد به ذلك التصادي الذي يحدث بين النصوص إن بطريقة صريحة أو غير صريحة. ونجده هنا غير واضح وليس تاما بل يترسم خطى الأصل ومثاله: "...لعله فر لأمه وبنيه وصاحبته وبنيه..."؛ ويبدو الاحتكاك مع النص القرآني واضحا في هذا السياق الدلالي.

د – حضور الأبنية الغريبة: (Las raras construcciones)

وهي ظاهرة شائقة رائقة في فن المقامة وتكشف بشكل واضح عن تمكن وقدرة البطل من استعمال اللغة استعمالا جيدا. وتكتسب أهمية خاصة هنا في هذه المقامة وهذه هي الخصيصة الكبرى التي ألمحنا إليها سابقا. ومثالها ها هنا: فايدة / عايدة / الألبا / الدنير.

3 – تحليل مضمون مقامة العيد

سنتعرض في هذا المستوى لما يقال أي المعنى أو تلكم المادة الحكائية أو المحتوى الذي يتم التعبير عنه بالإجراءات والإواليات الآنفة الذكر. ويتعلق الأمر ها هنا بتيمة (موضوعة) شائعة في الحياة الثقافية العربية والإسلامية، ومطروقة ومستهلكة في معظم أبواب المنثور والمنظوم. إنها سُنة استنها للمسلمين جدنا إبراهيم عليه السلام، وهي تيمة أو موضوعة "عيد الأضحى" أو عيد الكبش كما يسميه الإسبان عندما يتحدثون عنا (La fiesta del cordero). وتناول هذه التيمة في هذه المقامة يجعلها تتسم وتطفح بأبعاد نفسية واجتماعية وفكاهية منفردة جدا.

إن هذا الأمر يجعلنا، وقبل كل شيء، ندرج هذه المقامة في صنف "المقامة الاجتماعية الفكاهية" وفاء لبنية الأدب الشطاري أو أدب الكدية وخلفيته (La literatura picaresca). (العثماني، 1995، صفحة 210). وهكذا يتضح منذ التمتمات الأولى للراوي أن البطل المكدي يكشف لنا عن وضع اجتماعي متردٍّ جدا. فهو مستجد أي ساعٍ (شاكر الأيادي) وماهر بالكلام، ومسكين يؤمن بحماقة الإنسان الرائعة (أنظر شكسبير من خلال مسرحية "عطيل")، نقصد العقيدة الجبرية.

وهكذا نستشف أن هذا البطل المسكين يريد أن يحمل السماوات والأرض خيبته وعجزه ولا جدواه حين يقول: "وأنا والله لا أعرف في التقليب والتخمين ولا أفرق بين العجف والسمين ...أروم الإطاعة من غير مطيع". هذا الأخير ينحدر أيضا من خارج المدار الحضاري، آنذاك، وقد يبدو أنه بدوي بدليل وجود السوق/ البريح / الباعة / المحتسب / الأمين. وهو أيضا ضعيف الشخصية وله بنية نفسية سيكولوجية هشة بدليل أنه يخاف من زوجته كما "تخاف صغار النعاج الذئاب". هذا دون أن ننسى، في السياق نفسه، دائما أن هذا المكدي معيل أي

له عيال، وهو وهم والزوجة مغلوبون على أمرهم لقلة ذات اليد: "ضمت بنتها وولدها وولولت...". ونُضيف أن هذه الأسرة يغيب عنها التفاهم والتناغم والانسجام. ناهيك عن بنية هذه المقامة المفتوحة (La estructura abierta) والخطية (lineal) والتي يمكن أن نقسمها إلى حكايات صغرى ضمن حكاية كبرى أي إطار. والدليل على انفتاحها عدم وجود نهاية واضحة المعالم لها مثلا؛ بحيث يمكن أن نتفنن في وضع ما لا نهاية من النهايات لها حسب أفهامنا وأوعائنا. هذا علاوة على النقد الذي يوجهه البطل المكدي، ولو بصورة غير مباشرة، إلى ذوي السلطة (أُنظر صورة الشرطي الذي يطلب منه أتعابه)، ثم (الإشارة إلى شحم كبش الخطيب كرجل دين مثلا).

والواضح أن البطل هنا وهو إذ يسرد حكاياته المتقطعة والمستطرفة والمثيرة للضحك والدعابة والهزل في الوقت نفسه، قد ابتغى منها قنطرة فنية لكي يحقق مأربه الأمجد وهدفه الأوحد ألا وهو الظفر بأضحية من الرئيس أبي سعيد بن نصر. وهو ما تم التلميح إليه في بداية هذه المقامة "العيدية" أي نسبة إلى العيد كما نعلم وفي نهايتها.

وتبدو المرأة العربية المسلمة الغرناطية (La mujer Granadina) كركيزة رئيسة في الأسرة العربية عموما والأندلسية خصوصا، إذ هي محافظة على القيم ومتشبثة بالأصول وغيور ومحفزة وقوة دافعة للزوج من أجل فعل الواجب واللازم بالإضافة إلى طموحاتها الكبيرة.

خلاصات عامة

نستنتج مما سلف أن "مقامة العيد" لابن مرابع الأزدي يمكن اعتبارها، فعلا، صورة جزئية ومصغرة عن الحياة الثقافية عموما التي كانت سائدة في فترة حرجة من فترات التواجد الإسلامي بالأندلس خلال القرن الرابع عشر الميلادي. وقد اعتمد الكاتب ابن مرابع الأزدي في كتابتها على عدة إواليات تقنية، كما أسلفنا، والتي لا تحيد في منظورنا عن إواليات كتابة فن المقامة كما عهدناها من ذي قبل. هذا من حيث مبناها، أما من حيث معناها فهو مطروق ومستهلك في أغلب أبواب الأدب شرقا وغربا (نقصد الغرب الإسلامي). ونقصد بالمعنى أو المضمون ما يقوله هذا النص المقامي حول التيمة المعالجة ألا وهي تيمة أو موضوعة "العيد".

على ألا يعني هذا أن الطقوس المصاحبة لهذه المناسبة الكريمة وما يتخللها من (أجواء احتفالية وصراعات ومشاكل عائلية أحيانا) قد انتهت وتوقفت بانتهاء التواجد الإسلامي بالأندلس؛ بل على العكس من ذلك، بقي ويبقى وسيبقى عيد الأضحى مناسبة كبرى تطبع الهوية وتسم الكيان العربيين الإسلاميين في الزمان والمكان أبى من أبى وشاء من شاء. غير أنه يبدو أن مفهوم العيد (عيد الأضحى) بدأ في أيامنا هاته يصطبغ بصبغة خاصة وبدأت توازيه الخيبات والاندحارات الثقافية والسياسية والاقتصادية والتأخر الاجتماعي والترهل العسكري والكساد الاقتصادي لدى الأمة العربية الإسلامية. ونموذج ذلك نهش الذئاب للعراق، وتذبيح السوريين والمصريين والتونسيين من طرف من كانوا مؤتمنين على حمايتهم، ثم طغيان ثقافة التسويق والبهرجة وغلاء المعيشة ومن ذلك عذاب الحصول على الأضحية ونحن في أيام العيد، ومن يدري ما ستأتي به السنون؟ واستنطاقا للسر المكنون نتساءل ها هنا مع أحمد بن السقاء أبي المحسد أبي الطيب المتنبي العملاق والحكيم المجنون في داليته التي أطبقت شهرتها الآفاق، يقول:

عيد بأية حال عدت يا عيد *** بما مضى أم بأمر فيك تجديد

المصادر والمراجع:

1- العثماني، إسماعيل. (1995). الأدب الشطاري: تعريف جديد لأدب قديم. الرباط: بحث مكتوب بالإسبانية مودع بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

2 - الفاخوري، حنا. (1986). الجامع في تاريخ الأدب العربي. القاهرة: منشورات درا الجيل للطبع والنشر والتوزيع.

3 - جادري، سهاد. (14 02، 2012). تقنية التعبير في مقامات الهمذاني. تاريخ الاسترداد 20 - 04- 2017، من ديوان العرب: https://www.diwanalarab.com/%D8%AA%D9%82%D9%86%DB%8C%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D8%A8%DB%8C%D8%B1-%D9%81%D9%8A

4 - بروكلمان، كارل. (1977). تاريخ الأدب العربي. القاهرة: منشورات دار المعارف.

5 - بن الخطيب، لسان الدين. (2010). الإحاطة في أخبار غرناطة. بيروت: منشورات دار الكتب العلمية.

6 - سمير علي، هاني. (24 06, 2015). تاريخ الاسترداد 23 - 6- 2017، من أراجيك: https://www.arageek.com/art/maqama-forgotten-arabic-art